الفصل الثاني عشر

الاصلاح الفرنسي

تلت الاحتجاجَ الذي قدم في سبايرز والاقرارَ الذي تُلي في أوجسبرج، اللذين سجلا نصرة الاصلاح في المانيا، سنو صراع وظلام؛ فالبروتستانتية إذ أضعفتها الانقسامات التي وقعت بين معاضديها وهاجمها أعداؤها الاشداء بدت كأنها مقضيّ عليها بالهلاك. لقد ختم آلاف من الامناء شهادتهم بدمائهم، ثم اشتعلت نار حرب أهلية، واعلنت خيانة أحد معاضدي القضية البروتستانتية المشهورين، كما سقط أشرف الامراء المصلحين بين يدي الامبراطور وكانوا يُسحبون كالاسرى من مدينة الى اخرى. لكنّ الامبراطور في لحظة انتصاره الظاهري أصابته الهزيمة .لقد رأى الفريسة تغتصب من قبضته وأجبر أخيرا على التسامح مع التعاليم التي كان طيلة حياته يطمع في ملاشاتها. لقد جازف بمملكته وأمواله وحياته نفسها لكي يسحق الهرطقة، أما الآن فها هو يرى جيوشه تُباد في المعارك وأمواله تتبدد وتذهب ضياعا، وممالكه الكثيرة تنذر بالثورة، بينما الايمان الذي حاول عبثا أن يكبته ويخمده ينتشر في كل مكان. كان شارل الخامس يحارب ضد قوة الله القاهرة. لقد قال الله : « ليكن نور »، لكنّ الامبراطور كان يحاول أن يبقي الظلمة جاثمة في الصدور والاذهان، وقد اخفقت كل مقاصده. وعندما بلغ سن الشيخوخة قبل الاوان إذ كان مضني القلب

والجسم من هول المعارك الطويلة تنازل عن العرش ودفن نفسه في دير حيث قضى باقي أيام حياته التعسة.

وكما كانت الحال في المانيا كذلك مرّتْ على الاصلاح في سويسرا ليال سود، ففي حين ان مقاطعات كثيرة قبلت الايمان المصلح فقد ظلت المقاطعات الاخرى متمسكة بعقيدة روما في اصرار اعمى. فكان من نتائج اضطهادهم مَن رغبوا في قبول الحق أن قامت حرب أهلية، وسقط زوينجلي وكثيرون ممن اتحدوا معه صرعى في ساحة القتال بمدينة كابل. واذ انسحقت روح ايكولامباديوس بسبب هذه الكوارث مات بعد ذلك بقليل. وانتصرت روما ،وفي أماكن كثيرة بدت كأنها ستسترجع كل ما قد خسرته. لكنّ ذاك الذي مشوراته منذ الازل لم يترك عمله ولا شعبه. فان يده تأتيهم بالخلاص وقد اقام في بلدان اخرى فعلة وعمالا يضطلعون بالاصلاح ويسيرون به قُدما.

ففي فرنسا كان نور النهار قد انبثق قبلما اشتهر لوثر كمصلح. وكان أول من أشرق عليهم النور رجلاً شيخاً يدعى ليففر، وكان رجلاً متبحرا في العلم وأستاذاً في جامعة باريس، وكان أحد البابويين الغيورين المخلصين. ففيما كان ينقب في كتب الادب القديم استرعى الكتاب المقدس انتباهه، فقدمه الى تلاميذه ليدرسوه.

وكان ليففر من مكرِّمي القديسين المتحمسين، فبدأ بإعداد تاريخ للقديسين والشهداء كما هو مدون في أساطير الكنيسة، وكان هذا العمل يتطلب تعبا عظيما وجهدا كبيرا. واذ كان قد قطع فيه شوطا بعيدا اذا به يفكر في الاستعانة بالكتاب المقدس، فبدأ بدرسه ونصب عينيه هذا الغرض، فرأى القديسين في الكتاب في صورة أخرى غير ما صوَّره التقويم الكاثوليكي. وحينئذ أشرق على ذهنه فيض من النور الالهي. ففي ذهول واشمئزاز كف عن ذلك العمل الذي كان قد عينه لنفسه، وكرس ذاته ووقته لكلمة الله. وقد بدأ يعلم بتلك الحقائق الغالية الثمينة التي اكتشفها.

مصلحان يعلنان الحق

وفي عام ١٥١٢، قبلما بدأ لوثر أو زوينجلي عمل الاصلاح، كتب ليففر يقول : « ان الله هو الذي يمنحنا بالايمان ذلك البر الذي بالنعمة وحدها يبرر للحياة الابدية » (١٨٤). واذ كان يتأمل في أسرار الفداء صاح قائلا : « ما أعظم تلك المقايضة التي لا توصف ! فالبار قد دين والمجرم اطلق حرا، المبارك يحمل اللعنة والملعون ينال البركة، معطي الحياة يموت والموتى يحيون، المجد يغوص في الظلام وذاك الذي لم يعرف غير خزي الوجوه يتسربل بالمجد » (١٨٥).

وفيما كان يعلِّم ان مجد الخلاص ينسب الى الله وحده أعلن أيضا ان الطاعة واجبة على الانسان. قال : « اذا كنت عضوا في كنيسة المسيح فأنت عضو في جسده، فان كنت عضوا في هذا الجسد فأنت اذاً ممتلئ بالطبيعة الالهية... آه لو أمكن أن يدرك الناس هذا الامتياز فكم كانوا يعيشون حياة الطهارة والعفاف والقداسة، كم كانوا ينظرون باحتقار الى مجد هذا العالم بالمقارنة مع المجد الذي في داخلهم، ذلك المجد الذي لا تستطيع أن تراه عيون البشر ! » (١٨٦).

وقد وُجد بين طلبة ليففر جماعة كانوا يصغون إلى أقواله بشوق ولهفة، طلبة كانوا سيواظبون على اعلان الحق بعد ان يصمت صوت استاذهم. وقد كان وليم فارل واحدا من هؤلاء. هذا الطالب، اذ كان ابنا لابوين تقيين وقد تربى على قبول تعاليم الكنيسة بايمان وطيد، كان يسعه أن يقول ما قاله بولس الرسول: «حسب مذهب عبادتنا الاضيق عشت فريسيا» (أعمال ٢٦: ٥). ولما كان كاثوليكيا قحا التهب قلبه غيرة لاهلاك كل من يجرؤ على مقاومة الكنيسة. وقد قال بعد ذلك وهو يشير الى هذه الفترة من حياته: «كنت أصر بأسناني كذئب ضار حين كنت أسمع انسانا يتكلم بالسؤ ضد البابا» (١٨٧). وكان دائبا في تمجيد القديسين بجهد لا يكل حين كان يصحب ليففر في جولاته لزيارة كنائس باريس، فيسجد أمام المذبح ويزين المزارات المقدسة بالهدايا. لكنّ هذه الفرائض لم تستطع أن تمنح نفسه السلام، فقد لازمه تبكيت شديد على خطاياه بحيث

ان كل الاعمال التكفيرية التي مارسها لم تُبعد عنه ذلك التبكيت. وقد أصغى الى أقوال المصلح كما لو كانت صوتا جاءه من السماء حين قال : « ان الخلاص هو بالنعمة... لقد دين البريء أما المجرم فأطلق سراحه... وصليب المسيح وحده هو الذي يفتح أبواب السماء ويغلق أبواب الجحيم » (١٨٨).

وبفرح عظيم قبل فارل هذا الحق. فاذ كان اهتداؤه كاهتداء بولس تحول بعيدا من عبودية التقاليد الى حرية أولاد الله. وهو يقول : « بدلا من القلب الفتاك لذئب مفترس عاد بهدوء حملا وديعا عديم الاذى اذ انسحب قلبه بعيدا من البابا وأعطي ليسوع المسيح » (١٨٩).

اقبال شديد على الانجيل

ظل ليففر ينشر النور بين طلبته ، أما فارل فإذ كان غيوراً في ما يختص بالمسيح كما كان في قضية البابا خرج ليشهد للحق علانية. هذا، وأن أحد أحبار الكنيسة وهو أسقف مو سرعان ما انضم اليهم. كما أن معلمين آخرين ذوي مراكز سامية ومقدرة وعلم انضموا اليهم في المناداة بالانجيل، وقد حصل الانجيل على مهتدين اعتنقوا الايمان من كل الطبقات، من بيوت الصناع والفلاحين الى قصر الملك. فقبلت أخت فرنسيس الاول ملك فرنسا الايمان المصلح. والملك نفسه والملكة الام بدا في ذلك الحين أنهما يقبلان الانجيل قبولا حسنا. وبآمال عالية تطلع المصلحون الى الامام، الى الوقت الذي فيه تُربح فرنسا للانجيل.

لكنّ آمالهم لم تكن لتتحقق. فلقد كانت التجارب والاضطهادات تنتظر تلاميذ المسيح .غير أن الله في رحمته أخفى كل ذلك عنهم. وقد تخللت ذلك فترة سلام حتى يتشددوا لمواجهة العاصفة وينجح الاصلاح ويتقدم تقدما سريعا. لقد تعب أسقف مو وبذل جهودا كبيرة في أسقفيته في تعليم رجال الكهنوت والشعب أيضا. وعزل الكهنة الجهلة الفاسدين وبقدر المستطاع نصب في مكانهم رجالا ذوي علم وتقوى. وكان الاسقف يرغب كل الرغبة في أن

يقترب شعبه من كلمة اللّه بانفسهم فتحقق ذلك سريعا. لقد عكف ليففر على ترجمة العهد الجديد، وفيما كان كتاب لوثر الالماني يخرج من المطبعة في وتنبرج نُشر العهد الجديد الفرنسي في مو. ولم يدخر الاسقف جهدا ولا مالا في سبيل نشر الكتاب في أبروشياته، وسرعان ما حصل الفلاحون في مو على الكتاب المقدس.

وكما يتلهف المسافرون، المشرفون على الموت عطشا، على نبع ماء حي ويستقبلونه بفرح عظيم كذلك استقبلت هذه النفوس رسالة السماء. فالفعلة في الحقول والصناع في ورش العمل كانوا يتسلون بذكر حقائق الكتاب المقدس الثمينة وهم فرحون. وفي المساء بدلا من ارتياد الحانات كانوا يجتمعون في بيوت اخوتهم ليقرأوا كلمة اللّه ويشتركوا معا في الصلاة والتسبيح. وقد شوهد تغيير عظيم في هذه المجتمعات. فمع أنهم كانوا من أفقر الطبقات ومن الفلاحين الكادحين وغير المتعلمين فقد شوهدت قوة النعمة الالهية المصلحة التي تسمو بالنفس في حياتهم. فاذ كانوا متواضعين ومحبين وقديسين وقفوا شهودا لما يستطيع الانجيل أن يفعله في حياة من يقبلونه باخلاص.

هذا، وان النور الذي أشرق في مو أرسل أشعته الى أماكن بعيدة. ففي كل يوم كان يزداد عدد المتجددين. أما غضب حكومة البابا فكان قد أوقف عند حده الى حين بفضل جهود الملك الذي كان يحتقر تزمت الرهبان وتعصبهم. لكنّ الرؤساء البابويين انتصروا في النهاية. وها هي آلات الاعدام تُنصب. فاذ اجبر أسقف مو على أن يختار إما الحرق بالنار أو التراجع أختار أسهل الامرين، ولكن على الرغم من سقوط الراعي فقد ظل قطيعه ثابتا. وشهد كثيرون للحق والنار تلتهم أجسامهم. ان هؤلاء المسيحيين الفقراء، بشجاعتهم وولائهم، تحدثوا الى الوف من الناس الذين لم يسبق لهم أن سمعوا شهادتهم في أيام السلام.

نبيل يحمل الشعلة

ولم يكن المحتقَرون والفقراء وحدهم هم الذين تجرأوا على أن يشهدوا للمسيح في وسط الآلام والاحتقار. ففي قلاع الاشراف وفي قصر الملك كانت توجد نفوس ملكية تقدر الحق أكثر من تقديرها الثروة والمراكز، وحتى الحياة نفسها. كان سلاح المُلك يخفي تحته روحا أعلى وأثبت مما يخفي رداء الاسقف وتاجه.

كان لويس دي بركين من أصل عريق، فارسا شجاعا ولطيفا كرس وقته للدرس، ومهذبا في عاداته وبلا لوم في اخلاقه وآدابه. وقد قال عنه أحد الكتَّاب: « لقد كان تابعا أمينا للشرائع البابوية ومواظبا على حضور القداسات والاستماع الى العظات... وقد توج كل فضائله الاخرى ببغضه لمبادئ لوثر ومقته اياها مقتا شديدا ». ولكن اذ قادته عناية الله الى الكتاب المقدس ككثيرين غيره من الناس فقد أدهشه أن يرى فيه « لا تعاليم روما بل تعاليم لوثر » (١٩٠). فمنذ ذلك الحين كرس نفسه تكريسا كاملا لقضية الانجيل.

كان « أعظم عالم بين نبلاء فرنسا »، وان ذكاءه وفصاحته وشجاعته التي لا تُقهر وغيرته وبسالته، ونفوذه في البلاط الملكي ــ لانه كان من أعز أصدقاء الملك ــ كل ذلك جعل كثيرين يعتقدون أنه سيكون مصلح البلاد. وقد قال بيزا : « كان في وسع دي بركين أن يكون لوثر الثاني لو كان الملك فرنسيس الاول شبيها بمنتخب سكسونيا ». وقد صاح البابويون قائلين : « انه شر من لوثر » (١٩١). وفي الحق ان الكاثوليك في فرنسا كانوا يخافونه أكثر من خوفهم لوثر، فألقوه في السجن بتهمة كونه هرطوقيا، لكنّ الملك أطلق سراحه. وظل الصراع محتدما عدة سنين، واذ كان الملك فرنسيس يتأرجح بين روما والاصلاح كان أحياناً يتسامح مع الرهبان وأحياناً يكبح غيرتهم العنيفة. وقد سجنت السلطات البابوية دي بركين ثلاث مرات، وفي كل مرة كان يُطلق سراحه بأمر الملك الذي

إذ كان معجباً بذكائه ونبوغه ونبل أخلاقه رفض أن يتركه ضحية لخبث حكومة البابا وضغائنها.

أما دي بركين فقد أنذر مرارا بالخطر الذي كان يتهدده في فرنسا، وألح عليه أصدقاؤه أن يتأثر خطوات الذين وجدوا النجاة في النفي الاختياري. فاراسمس المتهيب المساير للظروف، الذي مع علمه ولوذعيته العظيمة أخفق في الوصول الى تلك العظمة والسمو الخلقي الذي يجعل الحياة والشرف خادمين للحق، كتب الى دي بركين يقول : « أُطلب أن يرسلوك سفيرا في دولة أجنبية. اذهب وسافر في أنحاء المانيا. أنت تعرف بيدا، ورجل مثله هو تنين ذو ألف رأس ينفث سمومه في كل مكان. ان أعداءك يُسمّون لَجِئون. ولو ان قضيتك أفضل من قضية يسوع المسيح فلن يتركوك تفلَت بل سيفتكون بك فتكا ذريعا. لا تمعن في الثقة بحماية الملك. وعلى كل حال لا تعرضني للخطر مع كلية اللاهوت » (١٩٢).

المخاطر تتكاثر

ولكن اذ تكاثرت المخاطر وتفاقمت الاهوال زادت غيرة دي بركين وقوته. فبدلا من اتباع مشورة إراسمس السياسية المنطوية على خدمة الذات، عزم على اتخاذ اجراءات أعظم جرأة. ولم يقنع بالدفاع عن الحق بل هاجم الضلالات. فتهمة الهرطقة التي حاول الكاثوليك أن يلصقوها به ألصقها هو بهم. وقد كان ألد أعدائه وأنشطهم هم الاساتذة المثقفون ورهبان القسم اللاهوتي في جامعة باريس العظيمة التي كانت من أسمى المراجع الاكليريكية في المدينة وفي الامة. وقد استخلص دي بركين من كتب أولئك العلماء اثنتي عشرة قضية جاهر بانها « مخالفة للكتاب المقدس وهرطوقية »، والتمس من الملك أن يكون حكما في ذلك الصراع.

واذ لم يكن الملك ينفر ابراز قوة أولئك المناضلين وذكائهم، بل فرح لان الفرصة قد سنحت له لاذلال كبرياء أولئك الرهبان المتعجرفين، أمر الكاثوليك أن

يدافعوا عن قضيتهم ببراهين من الكتاب المقدس. كانوا يعرفون جيدا أن هذا السلاح لن يفيدهم كثيرا، أما السجن والتعذيب والحرق بالنار فكانت هي الاسلحة التي عرفوا جيدا كيف يحسنون استخدامها. والآن فها هي الدائرة تدور عليهم اذ رأوا أنفسهم موشكين على السقوط في الهوة التي كانوا يحاولون إسقاط دي بركين فيها. ففي حيرتهم وذهولهم جعلوا يتلفتون حولهم طلبا للنجاة

« في ذلك الوقت نفسه شوهد تمثال للعذراء في زاوية أحد الشوارع مشوها ومبتورا »، فحدث شغب عظيم في المدينة. وتقاطرت جماهير الناس الى ذلك المكان وهم يعبرون عن حزنهم وغضبهم. وكذلك الملك تأثر تأثرا عميقا. وصاحوا قائلين : « هذه هي ثمار تعاليم دي بركين » ثم قالوا : « ان كل شيء مصيره الى الدمار ــ الدين والشرائع والعرش نفسه ــ بسبب مؤامرة لوثر » (١٩٣).

وقُبض على دي بركين مرة أخرى. أما الملك فانسحب من باريس، وهكذا تُركت للرهبان الحرية لاتمام أغراضهم. فحوكم هذا المصلح وحكم عليه بالموت، وحتى لا يتدخل فرنسيس لانقاذه نُفذ فيه حكم الموت في يوم النطق بالحكم نفسه. ففي ظهر ذلك اليوم سيق إلى ساحة الاعدام حيث اجتمعت جموع كثيرة لمشاهدة ذلك الحدث. وكثيرون رأوا بدهشة وتشاؤم ان هذه الضحية قد اختيرت من بين أفضل وأشجع الاسر النبيلة في فرنسا. وقد غشيت وجوه تلك الجموع الصاخبة سحب الذهول والغضب والاحتقار والكراهية المرة. لكنّ وجها واحدا كان صافيا لم يعكره شيء. لقد طارت أفكار ذلك الشهيد بعيدا من منظر ذلك الشغب فلم يكن يحس بغير حضور سيده وربه.

صمت دي بركين

لم يلتفت الى العربة التعسة التي ركب فيها ولا الى نظرات التجهم والعبوس التي كان يوجهها اليه مضطهدوه، ولا الى الموت المخيف الذي كان ماضيا اليه. فهذه لم يكترث لها، لكنّ ذاك الحي الذي كان ميتا وهو حي

الى أبد الآبدين والذي له مفاتيح الهاوية والموت كان واقفا الى جواره. كان وجه دي بركين يتألق بنور السماء وسلامها. وكان قد لبس ثيابا فاخرة، اذ ارتدى معطفا من المخمل وصديريا من الاطلس والدمقس وجوربا ذهبيا » (١٩٤). كان مزمعا أن يشهد لايمانه في محضر ملك الملوك وسكان المسكونة المشاهدين، وما كان ينبغي أن تظهر علامة من علائم الحزن لتكذب فرحه أو تعكره.

واذ كان الموكب يسير ببطء في الشوارع المزدحمة لاحظ الناس بدهشة السلام الصافي والنصرة الفرحة في نظراته وهيئته، فقالوا : « انه يشبه انسانا جالسا في هيكل يتأمل في الامور المقدسة » (١٩٥).

وعندما جيء به الى مكان الاعدام حاول دي بركين أن يخاطب الشعب قليلا، ولكن اذ كان الرهبان يخشون مغبة ذلك بدأوا يصيحون وبدأ الجنود يصلون أسلحتهم فلم يستطع أحد أن يسمع صوت الشهيد. وهكذا ففي عام ١٥٢٩ قامت أعلى السلطات الادبية والاكليريكية لمدينة باريس المهذبة المثقفة «باعطاء غوغاء [الثورة الفرنسية] في العام ١٧٩٢ مثالا دنيئا عن كيفية اسكات أصوات المحتضرين المقدسة وهم على المشنقة » (١٩٦).

وقد شُنق دي بركين وأحرقت جثته في النار. فكان خبر موته محزنا لاصدقاء الاصلاح في فرنسا كلها. لكن مثاله لم يذهب ضياعا. فلقد قال شهود الحق : « اننا نحن أيضا على أتم استعداد لمواجهة الموت بفرح ونحن ناظرون الى الحياة الآتية » (١٩٧).

وفي أثناء الاضطهاد الذي وقع في مو حُرم معلمو الايمان المصلَح من الترخيص المعطى لهم للتبشير فرحلوا الى حقول اخرى. وبعد قليل سافر ليفقر الى المانيا. أما فارل فعاد الى مسقط رأسه في شرقي فرنسا لينشر النور حيث قضى سني طفولته. وكانت قد وصلت الى هناك أخبار عن الاحداث الجارية في مو، فوجد الحق الذي علَّم به المصلِح بغيرة لا تعرف الخوف مَن يستمعون اليه. ولكن سرعان ما ثارت السلطات لاسكاته فنفي من المدينة.

ومع أنه لم يعد في مقدوره ان يخدم جهارا فقد جال في الارياف والقرى معلما الناس في مساكنهم الخاصة ومراعيهم المنعزلة، وكان يأوي الى الغابات والكهوف المنقورة في الصخور التي كان يلجأ إليها في حداثته. وكان الله يُعدّه لتجارب اقسى. وقد قال مرة : « ان الصلبان والاضطهادات ودسائس الشيطان التي سبق أن أنذرت بها كان يوجد منها الشيء الكثير، وهي أقسى من أن استطيع احتمالها من تلقاء نفسي، لكنّ الله هو أبي فلقد أمدني بالقوة التي أحتاج اليها وهذا هو ما يصنعه بي دائما » (١٩٨).

وكما حدث في أيام الرسل كذلك حدث حينئذ أن الاضطهادات « آلت أكثر الى تقدم الانجيل » (فيلبي ١: ١٢). فاذ طردوا من باريس ومو « فالذين تشتتوا جالوا مبشرين بالكلمة » (أعمال ٨: ٤). وهكذا شق النور لنفسه طريقا في كثير من مقاطعات فرنسا النائية.

الله يعد كلفن

لقد كان الله لا يزال دائبا في اعداد عمال لينشروا رسالته. ففي احدى مدارس باريس كان يوجد شاب مفكر هادئ، وكان قد سبق فأقام البرهان على أن له عقلا ثاقبا جبارا، كما كانت حياته أيضا بلا لوم كشأنه في غيرته وذكائه وتعبده الديني. وسرعان ما جعله نبوغه ومثابرته مفخرة الكلية، وكان كثيرون يؤملون بكل ثقة أن جون كلفن سيصير من أقدر الرجال وأكرمهم في الدفاع عن الكنيسة. لكنّ شعاعا من نور الله اخترق جدران الفلسفة الاسكلائية والخرافات التي كان كلفن محبوسا ضمنها. وقد اقشعر بدنه عندما سمع عن التعاليم الجديدة، ولم يكن يشك في أن الهراطقة يستحقون الحرق بالنار التي اكتووا بها. ومع ذلك فقد جمعته الصدفة وجها لوجه أمام الهرطقة وأرغم على اختبار قوة اللاهوت الكاثوليكي في مبارزة التعليم البروتستانتي.

جاء الى باريس أحد أبناء عمه، وكان قد انضم الى المصلحين فاجتمع ذانك القريبان معا وكانا يتباحثان في تلك المسائل التي اربكت العالم المسيحي. فقال أوليفيتان البروتستانتي : « لا توجد في العالم غير ديانتين، احداهما من اختراع الناس وفيها يخلص الانسان نفسه بالطقوس والاعمال الصالحة، أما الاخرى فهي تلك المعلنة في الكتاب المقدس والتي تعلم الإنسان ان ينتظر الخلاص بنعمة الله المجانية وحدها ».

فصاح كلفن يقول : « لا شأن لي بتعاليمك الجديدة هذه. أفتظن أنني قد عشت في الضلال كل أيامي ؟ » (١٩٩).

تحت تأثير الحق

ولكن استيقظت في عقله أفكار لم يقو على طردها بعيدا منه بارادته. فاذ كان منفردا في حجرته جعل يتأمل في ما قاله له ابن عمه. وقد لازمه تبكيت شديد على خطيئته فرأى نفسه ولا شفيع له وهو ماثل في حضرة الديان القدوس العادل. ان شفاعة القديسين والاعمال الصالحة وطقوس الكنيسة عجزت كلها عن التفكير عن الخطيئة. ولم يكن يرى أمامه سوى قتام اليأس الأبدي. وعبثاً حاول أحبار الكنيسة أن يُخففوا عنه ويله وشقاءه. وعبثاً لجأ الى الاعتراف والاعمال التكفيرية إذ لم تُصلح بينه وبين الله.

وفيما كان كلفن لا يزال مشتبكا في تلك المصارعات التي لا جدوى منها اتفق له أن ذهب لزيارة أحد الميادين العامة في أحد الايام، فرأى هناك هرطوقيا يموت احتراقا. وقد أدهشه السلام الذي كان يراه مرتسما على وجه ذلك الشهيد. ففي وسط عذابات ذلك الموت الرهيب، وهو واقع تحت دينونة الكنيسة التي هي أرهب من العذاب والموت، أبدى ذلك الشهيد شجاعة وايمانا راح ذلك الطالب الشاب يوازن بينهما وبين يأسه وظلمته بألم وانسحاق مع حرصه الشديد على اطاعة أوامر

الكنيسة بكل صرامة. وقد علم كلفن ان ايمان الهراطقة كان يستند الى الكتاب المقدس، فعقد العزم على دراسته حتى يكتشف، إذا أمكن، سر فرحهم .

وفي الكتاب وجد المسيح. فصاح يقول : « أيها الآب، ان ذبيحته قد أسكتت غضبك، ودمه طهرني من كل نجاساتي. وعلى اصليب حمل اللعنة عني، وموته كفر عن ذنوبي. لقد ابتكرنا لانفسنا كثيرا من الجهالات العاطلة، لكنك وضعت كلمتك أمامي كسراج، وقد لمست قلبي حتى اعتبر كل استحقاق آخر غير استحقاقات يسوع رجاسة » (٢٠٠).

كان كلفن قد تعلّم لكي يدخل الخدمة الكهنوتية. فاذ كان في الثانية عشرة من العمر الحق في خدمة كنيسة صغيرة وقد حلق له الاسقف رأسه حسب قانون الكنيسة. لكنه لم يُرسم ولم يقم بواجبات الكاهن بل حُسب عضوا بين رجال الاكليروس، وكان يحتفظ بلقب وظيفته ويتقاضى مرتبا عنها.

أما الآن، وقد أحس انه لن يمكنه أن يصير كاهنا، فقد عكف على دراسة القانون بعض الوقت، لكنه أخيرا ترك تلك الدراسات وعقد العزم على تكريس حياته للانجيل. غير أنه تردد في أن يكون معلما للشعب. لقد كان خجولا بطبيعته وقد ثقل على نفسه عبء مسؤولية تلك الوظيفة، وكان يرغب في تكريس نفسه للدرس. أخيرا انتصرت عليه توسلات أصدقائه فقبل القيام بذلك العمل. قال : «انه أمر مدهش ان إنسانا وضيع الاصل يتبوأ هذا المركز الرفيع العظيم» (٢٠١).

كلفن يبدأ عمله

بدأ كلفن عمله بكل هدوء، فكان كلامه كالندى المتساقط على الارض اليابسة لاحيائها. كان قد ترك باريس وانطلق الى مدينة اقليمية تحت حراسة الاميرة مرغريت التي اذ كانت تحب الانجيل بسطت حمايتها على تلاميذه. كان كلفن لا يزال حدثا رقيق العادات وبسيط المظهر. وقد بدأ عمله بين الشعب في بيوتهم. فاذ كان أفراد العائلة يجتمعون حوله كان يقرأ الانجيل

ويكشف لهم عن حقائق الخلاص. فالذين سمعوا الرسالة نقلوا تلك الاخبار السارة الى الآخرين، وسرعان ما انتقل ذلك المعلم تاركا تلك المدينة الى المدن والقرى المنعزلة. وكان يجد الباب مفتوحا أمامه الى القلاع والاكواخ على السواء، وكان يتقدم ليضع أساسات كنائس كانت ستخرج شهودا للحق لا يهابون الموت.

وبعد أشهر قليلة عاد الى باريس. وكان هناك اهتياج غير عادي بين العلماء والأساتذة. فدراسة اللغات القديمة قادت الناس إلى الكتاب المقدس، وكثيرون ممن لم تتأثر قلوبهم من قبل بحقائقه جعلوا بكل شوق يتباحثون فيها، بل كانوا يحاربون المناضلين عن الكاثوليكية. أما كلفن فمع كونه ضليعا وفارسا لا يُشق له غبار في ميادين المجادلات اللاهوتية فقد كانت لديه رسالة أسمى يتممها غير ما كان لاولئك الفلاسفة الكثيري الصخب والمشاغبات. كانت عقول الناس قد استيقظت، فكان هذا هو الوقت المناسب الذي يُكشف لهم فيه الحق. ففي حين كانت قاعات الجامعات تسودها ضجة المجادلات اللاهوتية، كان كلفن يتنقل من بيت الى بيت وهو يفسر الكتاب المقدس للشعب ويحدثهم عن المسيح وإياه مصلوباً.

اشراق النور في باريس

اقتضت عناية الله أن تقدم الى مدينة باريس دعوة اخرى لقبول الانجيل. لقد رفضت دعوة ليففر وفارل، لكنّ كل الناس من كل الطبقات في تلك العاصمة كانوا سيسمعون الرسالة من جديد. أما الملك فاذ كان متأثرا باعتبارات سياسية لم يكن ينحاز الى روما تماما ضد الاصلاح. وأما مرغريت فكانت لا تزال متشبثة بالامل في أن البروتستانتية ستنتصر في فرنسا. فعزمت على أن تأمر بالكرازة بالعقيدة المصلحة في باريس. ففي أثناء غياب الملك أمرت خادما بروتستانتيا بان يبشر في كنائس العاصمة. واذ منعت السلطات البابوية هذا فتحت الاميرة أبواب القصر على سعتها. فأعدت حجرة كبيرة لتكون قاعة للإجتماعات، وأعلن أنه في ساعة معينة من كل يوم

ستلقى عظة، ودُعي الناس من كل الطبقات والمراكز للحضور، فتقاطرت جماهير الشعب لحضور الخدمة. واذ ضاقت القاعة بجماهير الشعب تجمَّع الناس في غرف الانتظار والردهات. وكانوا يجيئون الى هناك كل يوم بالالوف، منهم النبلاء والساسة والمحامون والتجار والصناع. وبدلا من أن يمنع الملك هذه الاجتماعات فقد أمر بفتح كنيستين من كنائس باريس. ولم يسبق لتلك المدينة أن تأثرت بكلمة الله كما حدث حينئذ. وقد بدا وكأن روح الحياة قد نزل من السماء ليرف على ذلك الشعب. كما حلت القناعة والزهد والطهارة والنظام والجد والعمل مكان السكر والخلاعة والمنازعات والخصومات والبطالة .

لكنّ الاحبار البابويين لم يقفوا مكتوفي الايدي. كان الملك لا يزال يرفض التدخل لايقاف الكرازة فاتجهت السلطات الدينية الى الشعب، ولم تدّخِّر وسيلة لإثارة مخاوف الجموع الجهلة المتعلقين بالخرافات وتعصبهم. واذ خضعت باريس في جهلها لمعلميها الكذبة فانها كاورشليم في القديم لم تعرف زمان افتقادها ولا ما هو لسلامها. ودام التبشير بكلمة الله في العاصمة. سنتين، و مع ان كثيرين قبلوا الانجيل فان الاكثرية الساحقة من الشعب رفضوه. وكان فرنسيس الاول قد تظاهر بالتسامح لكي يخدم اغراضه، فافلح البابويون في استعادة سيادتهم. ومرة أخرى أغلقت الكنائس وأعدت النار لحرق الهراطقة.

كان كلفن لا يزال في باريس يعدّ نفسه بالدرس والتأمل والصلاة لعمله وخدماته العتيدة. ومن فرط مواظبته على نشر النور حامت حوله الشكوك. وقد حاولت السلطات أن تحرقه بالنار. وكان يظن نفسه في معتكفه في منأى عن الخطر، واذا ببعض اصدقائه يهرولون مسرعين اليه ليخبروه بان بعض الضباط هم في طريقهم اليه ليلقوا القبض عليه. وفي تلك اللحظة سُمع قرع عنيف على الباب الخارجي. ولم تبق لديه برهة واحدة ليضيعها. وقد أبقى بعض أصدقائه أولئك الضباط واقفين على الباب في حين ساعد آخرون على انزال المصلح من إحدى النوافذ، فأسرع خارجا الى أطراف المدينة. وقد لجأ الى كوخ عامل من أصدقاء الاصلاح فتنكر بثياب مضيفه ووضع فأسا على كتفه واستأنف رحلته. واتجه في سيره نحو الجنوب لاجئاً الى أملاك مرغريت مرة أخرى (٢٠٢).

تحت حماية الاصدقاء

ظل في ذلك المكان بضعة أشهر تحت حماية أصدقاء أشداء، وشُغل في الدرس كما فعل من قبل ذلك. لكنه كان قد آل على نفسه أن يبشر فرنسا، ولذلك لم يستطع أن يظل عاطلا وقتا طويلا. فحالما خفت شدة العاصفة قليلا ذهب يبحث عن حقل جديد للخدمة في بواتييه التي تضم جامعة وحيث كان الناس قد بدأوا يعتنقون الآراء الجديدة ويقبلونها. وكان أناس من كل الطبقات يصغون الى رسالة الانجيل بفرح. لم يكن التبشير علنيا بل كان يعقد الاجتماع في بيت كبير القضاة، في محل اقامته، واحياناً في أحد المتنزهات. وكان كلفن يشرح كلام الحياة الابدية لكل من رغبوا في سماع أقواله. وبعد وقت اذ زاد عدد السامعين ارتُئي أن يجتمعوا خارج المدينة لضمان سلامتهم. وكان يوجد كهف في جانب ممر عميق ضيق حولته الاشجار والصخور المشرفة الى معتكف محجوب عن العيون، فاختاروه ليعقدوا فيه اجتماعاتهم. وكانوا جماعات صغيرة متخذين طرقا مختلفة. في هذه البقعة المنعزلة كان الكتاب المقدس يُقرأ ويُشرح .في هذا المكان مارس البروتستانت فريضة العشاء الرباني لاول مرة في فرنسا. ومن هذه الكنيسة الصغيرة خرج كثيرون من المبشرين الامناء.

ومرة أخرى عاد كلفن الى باريس. كان لا يزال متعلقا بهذا الامل وهو ان فرنسا كأمة ستقبل الاصلاح. لكنه وجد كل باب من أبواب العمل مغلقا تقريبا. فكونه يعلِّم الناس الانجيل معناه انه يسير في اقصر الطرق الى الموت احتراقا، ولذلك قرر أخيرا أن يرحل الى المانيا. وما أن ترك فرنسا حتى هبت على البروتستانت عاصفة هائلة بحيث أنه لو بقي لكان مصيره القتل كغيره.

ان المصلحين الفرنسيين اذ كانوا يتوقون الى ان يروا بلادهم سائرة قدما في طريق الاصلاح كالمانيا وسويسرا عولوا على أن يضربوا ضربة جريئة ضد خرافات روما توقظ الامة كلها. ولذلك فقد كُتبت اعلانات في ليلة واحدة

تهاجم القداس وأرسلت بالبريد الى كل انحاء فرنسا. لكنّ هذه الحركة الغيورة والطائشة في الوقت نفسه بدلا من أن تعمل على تقدم الاصلاح جلبت الدمار ليس على مروجيها فحسب بل على كل أصدقاء الاصلاح في كل أرجاء فرنسا. فلقد أعطت البابويين ما كانوا يبتغونه، أي حجة لطلب اهلاك الهراطقة هلاكا تاما لكونهم مهيجين خطرين على استقرار العرش وسلام الامة.

وبيد خفية ــ لم يُعلم اذا كانت يد صديق طائش أو عدو محتال ــ ألصق أحد الناس تلك الاعلانات على باب مقصورة الملك الخاصة. وقد امتلأ قلب الملك رعبا. ففي هذا الاعلان هاجمت يد قاسية الخرافات التي ظل الناس يوقرونها اجيالا طويلة. وهذه الجرأة التي لا مثيل لها، جرأة التطفل بهذه الاقوال الصريحة المفزعة في حضرة الملك، أثارت غضبه. ففي ذهوله ظل بعض الوقت مرتعدا وهو صامت وحينئذ عبر عن اهتياجه وغضبه بهذه الكلمات : « ليقبض على كل من يُشك في أنهم لوثريون من دون تمييز. اني سأستأصلهم جميعا » (٢٠٣). وهكذا قُضى الامر اذ عزم الملك على أن يلقي بنفسه الى جانب روما.

حكم ارهابي

اتخذت الاجراءات في الحال للقبض على كل اتباع لوثر في باريس. وكان صانع فقير من معتنقي الايمان المصلح معتادا أن يدعو المؤمنين لحضور الاجتماعات التي كانت تعقد في الخفاء، فقبض عليه وهُدد بالقتل في الحال حرقا بالنار اذا لم يرشد مبعوث البابا الى بيت كل بروتستانتي في المدينة. فارتجف رعبا أمام ذلك الاقتراح الدنيء، لكن خوفه من الموت احتراقا انتصر عليه في النهاية فرضي بان يسلِّم اخوته .فسار الخائن مع مورين المخبر السري الملكي، وحولهما جماعة من الكهنة وحاملي المباخر والرهبان والجند، في شوارع المدينة. كان القصد من هذه المظاهرة ظاهريا تكريم « القربان

المقدس »، والتكفير عن الاهانة التي لحقت بذبيحة القداس من البروتستانت، ولكن كان يختفي خلف هذا المهرجان قصد مهلك مميت. فلدى وصولهم مقابل بيت أحد اللوثريين كان الخائن يومئ خفية، فيتوقف الموكب ويدخل الاعداء البيت، ويسحبون أفراد العائلة ويكبلونهم بالقيود. وكانت تلك الجماعة الرهيبة تتقدم الى الامام بحثا عن ضحايا جديدة. « انهم لم يُبقوا على بيت واحد عظيما كان أو صغيرا، حتى كليات جامعة باريس ... لقد أرعب مورين المدينة كلها ... كان ذلك الحكم حكم الارهاب » (٢٠٤).

وقد قُتلت كل تلك الضحايا بعدعذابات قاسية. وكان هناك أمر خاص يقضي بان تكون النار خفيفة حتى تطول مدة عذاباتهم. لكنهم ماتوا منتصرين. فلم يتزعزع ثباتهم ولا عكر سلامَهم معكر. واذ عجز المضطهدون عن زعزعة ثبات أولئك الشهداء الذي لا يلين أحسوا بانهم قد انهزموا. « لقد نصبت المشانق في كل أحياء باريس، وتبع ذلك الحرق بالنار في أيام متتابعة، وكان القصد من ذلك نشر الذعر من الهرطقة بنشر القتل والاعدام في كل مكان. ومع ذلك ففي النهاية كانت كفة الانجيل هي الراجحة. لقد استطاع كل أهل باريس أن يروا أي نوع من الرجال هم أولئك الذين خلقتهم تلك الآراء الحديثة. لم تكن هنالك منصة أفضل من منصة كل شهيد وهو يموت احتراقا. فذلك الفرح الرصين الذي أنار وجوه هؤلاء الرجال وهم يسيرون... الى ساحة الاعدام، والبطولة التي أبدوها وهم واقفون في وسط النيران المشتعلة، ووداعتهم وصفحهم عن تلك المظالم جعلت غضب بعض المشاهدين ينقلب الى اشفاق وبغضتهم الى محبة، وكان دفاعا ينطق بأفصح لسان وأقوى حجة في صالح الانجيل » (٢٠٥).

واذ كان الكهنة يحرصون على أن يجعلوا حنق الشعب على أشده أشاعوا أرهب التهم ضد البروتستانت. فلقد اتهموهم بالتآمر على ذبح الكاثوليك وقلب الحكومة وقتل الملك. لكنّ كل هذه الادعاءات لم يكن هنالك ظل من برهان على صدقها. ومع ذلك فان هذه التنبؤات عن الشر كانت

ستتم في ظروف تختلف عن هذه الظروف اختلافا بينا ولاسباب من نوع مختلف. فاعمال القسوة التي ارتكبها الكاثوليك ضد البروتستانت الابرياء تجمعت في جزاء ثقيل رهيب، وبعد ذلك بقرون أوقعت بهم الهلاك الذي تنبأوا بانه يتهددهم، ملكا وحكومة وشعبا. لكنه جزاء وقع عليهم بأيدي الملحدين والبابويين أنفسهم. فلم يكن توطيد دعائم البروتستانتية بل هو كبحها وكبتها ما سيوقع بفرنسا كوارث هائلة بعد قرابة ٣٠٠ سنة.

في ذلك الوقت شملت الشبهات والشكوك والرعب كل طبقات المجتمع. وفي وسط الذعر العام رأى الناس الى أي حد تأصلت التعاليم اللوثرية في عقول الرجال الذين كانوا قد تلقوا أعلى تعليم وتمتعوا باعظم نفوذ وتحلوا بالاخلاق السامية. لقد وجدوا أن وظائف كثيرة سامية ومهمة قد خلت من أصحابها. واختفى كثيرون من الصناع ورجال المطابع والعلماء وأساتذة الجامعات والمؤلفين، وحتى ندماء الملك. وهرب مئات من باريس، نفوا أنفسهم من وطنهم، وفي حالات كثيرة قدموا اول اخطار على انحيازهم للعقيدة المصلحة. وقد جعل البابويون ينظرون حولهم في ذهول وهم يفكرون في الهراطقة الذين عاشوا بين ظهرانيهم من دون أن يثيروا الشبهات. وقد صبوا جامات غضبهم على جماهير الضحايا من الفقراء الذين كانوا في قبضة أيديهم. واكتظت السجون بالابرياء واظلمت السماء بالدخان المتصاعد من المحرقات المنصوبة لقتل المعترفين بالانجيل.

لقد كان فرنسيس الاول يتشدق بانه قائد في حركة النهضة التي بدأت في أوائل القرن السادس عشر، وسره أن يجمع في بلاطه رجالا علماء من كل البلدان. وكان التسامح القليل الذي أظهره للاصلاح يعزى نوعا ما الى حبه العلم واحتقاره جهل الرهبان وخرافاتهم. ولكن اذ دفعته غيرته الى استئصال الهرطقة أصدر من كان نصيرا للعلم ومحبا للعلماء منشورا بإلغاء الطباعة في كل أنحاء فرنسا! وهو بذلك يقدم الينا مثالا، ضمن أمثلة كثيرة سجلها التاريخ، عن أن الثقافة العقلية ليست واقية للانسان من التعصب الديني والاضطهاد.

كانت فرنسا عازمة على ملاشاة البروتستانتية في احتفال مقدس عام. وقال الكهنة ان الاهانة التي بلغت الى عنان السماء بذم ذبيحة القداس يجب غسلها بالدم، وإن الملك يجب أن ينوب عن شعبه في التصديق على ذلك العمل المخيف.

وتقرر أن يكون اليوم الحادي والعشرون من شهر كانون الثاني (يناير) عام ١٥٣٥ اليوم المعين للقيام بذلك الاحتفال الرهيب. فثارت المخاوف الوهمية والكراهية المتعصبة العمياء في قلوب الامة جمعاء. واجتمعت في باريس جماهير من الناس القادمين من الارياف المحيطة بها فامتلأت بهم الشوارع. كان ذلك اليوم سيُبدأ بموكب مهيب « وقد عُلقت على البيوت المحيطة بالشوارع أقمشة حداد سوداء، كما أقيمت مذابح متباعدة ». وأضيء سراج أمام كل باب تكريما « للسر المقدس ». « وقبل الفجر بدأ الموكب يتجمع أمام قصر الملك. في مقدّمه جاءت أعلام الابروشيات المتعددة وصلبانها، وبعدها سار المواطنون اثنين اثنين حاملين السرج ». ثم أقبلت الرهبانيات الاربع، كل منها في زيها الخاص. وأتي بعد ذلك بمجموعة من الذخائر الشهيرة وخلفها رجال الاكليروس الاشراف في حللهم الارجوانية والقرمزية، وثيابهم الزاهية الجميلة البراقة، وقد غمرتهم الزينات المجملة بالجواهر.

« وحمل أسقف باريس ذبيحة القربان تحت مظلة فخمة... يحملها أربعة من أمراء البيت المالك... وخلف القربان الملك فرنسيس الاول الذي لم يلبس في ذلك اليوم لا تاج الملك ولا الحلة الملوكية ». « فاذ كان ملك فرنسا حاسر الرأس وهو متجه ببصره الى الارض وفي يده سراج منير » ظهر « في هيئة انسان تائب نادم » (٢٠٦). وكان يجثو أمام كل مذبح بكل تذلل ليس لاجل الرذائل التي تنجست بها روحه أو الدم الزكي الذي تلوثت به يداه لأجل الخطيئة المميتة التي ارتكبها رعاياه الذين تجرأوا على ادانة ذبيحة القداس. وبعده جاءت الملكة ورؤساء الدولة وهم يسيرون اثنين اثنين وكل يحمل سراجا منيرا.

وكجزء من خدمات ذلك اليوم خاطب الملك رجال المملكة العظام في باحة قصر الاسقف الكبيرة. فظهر أمامهم بوجه حزين. وبكلام فصيح مؤثر كان ينوح على « الجريمة والتجديف ويوم الحزن والعار » الذي حل بالامة. وقد طالب رعاياه المخلصين بان يساعدوا في استئصال الهرطقة الوبائية التي كانت تتهدد فرنسا بالدمار، ثم قال : « وعلى قدر ما أنا متأكد من أنني ملككم أيها السادة لو رأيت عضوا من أعضاء جسمي ملطخا أو مصابا بهذا التعفن والفساد الكريه لكنت أقدمه اليكم لكي تبتروه... وأكثر من هذا فلو علمت ان أحد أبنائي متنجس بهذه الهرطقة لما أبقيت عليه... بل كنت أسلمه بنفسي وأقدمه ذبيحة للّه ». وقد انهمرت الدموع من عينيه فاحتبس صوته ولم يستطع ان يتكلم، فبكى كل ذلك الجمع، وصاحوا يقولون بصوت واحد : « اننا سنعيش ونموت في سبيل الدين الكاثوليكي » (٢٠٧).

ما كان أرهب تلك الظلمة التي شملت أمة رفضت نور الحق ! لقد ظهرت « النعمة المخلصة » لكنّ فرنسا بعدما شاهدت قوتَها وقداستها، وبعدما اجتذب جمالُها آلافا من النفوس، وبعدما استنارت المدنُ والقرى بنورها، ارتدت الى الوراء اذ اختارت الظلمة ورفضت النور. لقد طرحوا عنهم هبة السماء قالوا عن الشر خيرا وعن الخير شرا الى أن سقطوا ضحايا خداع النفس العنيد. والآن فمع أنهم يعتقدون فعلاً انهم باضطهادهم شعب اللّه إنما يؤدّون له تعالى خدمة فإن ذلك الاخلاص لم يبررهم. انهم بكل عناد رفضوا النور الذي كان يمكن أن ينقذهم من الخداع ومن تلطيخ أرواحهم بدماء ضحاياهم الابرياء.

قسَم لاستئصال الهرطقة

وقد أقسم الجميع قسما مقدسا بان يستأصلوا الهرطقة وذلك في الكاتدرائىة العظيمة حيث نصبت « الاهة العقل » على العرش بعد ذلك بحوالي ثلاث مئة سنة، نصبتها تلك الامة التي نسيت الاله الحي. وقد نُظم الموكب من جديد وشرع ممثلو فرنسا في العمل الذي قد اقسموا أن يعملوه. « فعلى مسافات قصيرة نصبت الصقالات التي كان بعض المسيحيين البروتستانت سيحرقون عليها أحياء، ورتبوا ان تشعل النار في اللحظة التي يقترب فيها الملك منهم، وان يتوقف الموكب لمشاهدة الاعدام » (٢٠٨). ان مجرد ذكر تفاصيل العذابات التي قاساها شهود المسيح أولئك مرعب ومدمر للشعور، لكنّ أولئك الضحايا ثبتوا ولم يتراجعوا. فاذ ألح على واحد منهم أن يتراجع أجاب قائلا : « أنا لا أومن بغير ما سبق الانبياء والرسل فكرزوا به وما آمنت به جموع القديسين. ان ايماني راسخ بالله، وهو سيقاوم كل قوات الجحيم » (٢٠٩).

وكان الموكب يتوقف مرارا أمام أماكن التعذيب، فلما وصلوا الى قصر الملك الذي كانوا قد انطلقوا منه تفرق الجمع، وانسحب الملك والاساقفة، وهم راضون كل الرضى عن اجراءات ذلك اليوم، وكانوا يهنئون أنفسهم بان العمل الذي قد بُدئ به سيستمر حتى تتلاشى الهرطقة تماما.

محاربة الانجيل بعنف

ان انجيل السلام الذي قد رفضته فرنسا كان سيُستأصل بكل تأكيد، وما أرهب نتائج ذلك ! ففي الحادي والعشرين من كانون الثاني (يناير) عام ١٧٩٣، أي بعد ٢٥٨ سنة من اليوم نفسه الذي فيه شرعت فرنسا في اضطهاد المصلحين، كان هنالك شغب وضوضاء، ومرة أخرى صاح الناس في طلب ضحايا جديدة، ومرة أخرى كانت تُرى الصقالات السود، ومرة

أخرى انتهت أحداث اليوم بالمحرقات الهائلة. وكان الملك لويس السادس عشر يناضل بين أيدي سجّانيه وجلاديه، لكنهم سحبوه الى ساحة الاعدام حيث أمسك بكل قوة وطرح على الارض وهوت الفأس على عنقه فتدحرج رأسه المقطوع بعيدا » (٢١٠) .ولم يكن الملك هو الضحية الوحيدة، فبالقرب من تلك البقعة هلك ٢٨٠٠ نفس تحت حد المقصلة القاطع في خلال تلك الايام الدامية، أيام حكم الرعب.

لقد قدم الاصلاح الى العالم كتابا مفتوحا كاشفا لهم عن وصايا شريعة الله وهو يلح بمطالبه على ضمائر الشعب. ان محبة الله غير المحدودة والسرمدية قد كشفت للناس عن شرائع السماء ومبادئها. لقد قال الله : « فاحفظوا واعملوا. لان ذلك حكمتكم وفطنتكم أمام أعين الشعوب الذين يسمعون كل هذه الفرائض فيقولون هذا الشعب العظيم انما هو شعب حكيم وفطن » (تثنية ٤: ٦). ان فرنسا عندما رفضت هبة السماء زرعت بذار الفوضى والخراب، ثم ان التفاعل الذي لا مفر منه بين السبب والنتيجة نتجت منه تلك الثورة الهائلة التي بدأ بها حكم الرعب.

فارل في سويسرا

قبلما ثار الاضطهاد بسبب تلك الاعلانات المشؤومة، بوقت طويل، أجبر فارل الشجاع الغيور على الهرب من أرض ميلاده، فانطلق ذاهباً إلى سويسرا وساعد على نجاح عمل زوينجلي، وهكذا جعل كفة الاصلاح ترجح. وقد قضى سنواته الاخيرة في تلك البلاد، ومع ذلك فقد ظل يبذل جهوده ونفوذه الثابت لاصلاح فرنسا. وفي خلال السنوات الاولى التي قضاها في منفاه اتجهت مساعيه بنوع خاص الى نشر رسالة الانجيل في وطنه. وقد قضى وقتا كبيرا في تبشير مواطنيه الساكنين عند الحدود، وبيقظته التي لا تعرف الكلال كان يراقب الصراع، وأعان الشعب بتشجيعاته ونصائحه. وبمساعدة غيره من المبعدين ترجمت مؤلفات

المصلحين الالمان الى الفرنسية، وطُبعت كميات كبيرة من هذه الكتب ومن الكتاب المقدس الفرنسي. وكان الموزعون يبيعون هذه الكتب بكثرة في فرنسا. كانت تلك الكتب تعطى للموزعين باثمان مخفضة، وهكذا ساعدتهم الارباح التي كانوا يحصلون عليها على الاستمرار في ذلك العمل.

لقد بدأ فارل عمله في سويسرا في زي معلم مدرسة وضيع. واذ لجأ الى أبروشية منعزلة كرس نفسه لتعليم الصغار. وفضلا عن فروع العلم العادية قدم حقائق الكتاب المقدس بكل حذر على أمل أن يصل الى الآباء عن طريق أولادهم. وقد آمن بعضهم، لكنّ الكهنة انبروا له ليوقفوا ذلك العمل، وثار الناس الفلاحون المتعلقون بالخرافات فقاوموه. وقد دافع الكهنة بقولهم : «ذلك لا يمكن أن يكون انجيل المسيح لان الكرازة به لا تجيء بالسلام بل بالحرب » (٢١١). وعندما طُرد فارل من مدينة هرب كالتلاميذ الاولين الى اخرى. فمن قرية الى قرية ومن مدينة الى مدينة اخرى انطلق سيرا على قدميه متحملا الجوع والبرد والتعب. وفي كل مكان كانت المخاطر تتهدده. كان يبشر في الاسواق والكنائس، وأحيانا كان يقف على منابر الكاتدرائيات. وأحيانا كان يجد الكنيسة خالية من السامعين، وفي أحيان أخرى كان تبشيره يقاطع بصيحات التهكم، في ذات مرة سُحب من المنبر بعنف. وقد تحرش به الرعاع أكثر من مرة، وضُرب حتى أشرف على الموت. ومع ذلك فقد ظل متقدما في سيره. ومع انه قد صد في أحيان كثيرة إلا أنه عاد الى الهجوم باصرار لا يتزعزع. وكان يرى مدينة بعد مدينة وبلدة بعد اخرى، كانت قبلا معاقل للبابويين، تفتح أبوابها للانجيل. والابروشية الصغيرة التي بدأ عمله فيها قبلت العقيدة المصلحة. كما ان مدينتي مورات ونيوشاتل نبذتا هما ايضا الطقوس البابوية واخرجتا التماثيل الوثنية من الكنائس.

اختيار وسيلة متواضعة

وكان فارل يشتاق من عهد بعيد الى ان يرفع العلم البروتستانتي في مدينة جنيف. فلو أمكنه أن يربح هذه المدينة فقد تصبح مركزا للاصلاح في فرنسا وسويسرا وايطاليا. فاذ جعل هذا الهدف نصب عينيه ظل يواصل جهوده حتى ربح كثيرا من المدن والقرى المجاورة. ثم دخل جنيف ومعه رفيق واحد. ولكن لم يُسمح له بان يعظ اكثر من مرتين. وقد حاول الكهنة عبثا أن يقنعوا السلطات المدنية بادانته، فاستدعوه للمثول أمام مجلس اكليريكي، وأتوا هم المجلس يحملون السلاح تحت طيات ثيابهم اذ كانوا ينوون اغتياله. وقد وقف خارج المجلس جمع من الدهماء الشرسين المسلحين بالهراوات والسيوف لكي يتأكدوا من موته إذا امكنه الافلات من المجلس. ومع ذلك فان وجود القضاة والقوة المسلحة أنقذه. في بكور اليوم التالي أخذ هو وزميله ليعبرا البحيرة الى مكان أمين. وهكذا انتهى أول مجهود بذله لتبشير جنيف.

أما المحاولة التالية فقد استخدمت فيها وسيلة متواضعة : شاب وضيع المظهر قوبل بفتور حتى من المعترفين بصداقتهم للاصلاح. ولكن أي نجاح يمكن أن يحرزه هذا الانسان في المدينة التي طُرد منها فارل ؟ وكيف يستطيع مثل هذا الانسان الذي تعوزه الشجاعة والخبرة أن يصمد لتلك العاصفة التي قد هرب من أمامها أقوى الرجال وأشجعهم ؟ « ... لا بالقدرة ولا بالقوة بل بروحي قال رب الجنود » (زكريا ٤ : ٦). « اختار الله ضعفاء العالم ليخزي الاقوياء »، «لان جهالة الله احكم من الناس وضعف الله أقوى من الناس » (١كورنثوس ١: ٢٧ و ٢٥).

بدأ فرومنت (وهذا هو اسم ذلك الشاب) عمله كمعلم مدرسة. فالحقائق التي علمها للاولاد في المدرسة رددوها على مسامع آبائهم في بيوتهم. وسرعان ما أقبل الوالدون ليستمعوا الى شرح الكتاب المقدس حتى امتلأت حجرة الدراسة بالمستمعين المنتبهين وقد وُزعت عليهم كتب العهد الجديد وبعض النبذ مجانا فوصلت الى أيدي كثيرين ممن لم يجسروا على

المجيء علانية ليسمعوا تلك التعاليم الجديدة. وبعد وقت أجبر هذا العامل أيضا على الهرب صونا لحياته، لكنّ التعاليم التي علمها للناس علقت بعقولهم. لقد زُرع الاصلاح وظل يقوى ويمتد. وقد عاد المبشرون، وبفضل جهودهم ثبتت العبادة البروتستانتية في جنيف أخيرا.

كانت المدينة قد أعلنت انحيازها الى جانب الاصلاح عندما دخل كلفن من أبوابها بعد جولات متعددة وتقلبات مختلفة مرت به. فاذ كان عائدا من آخر زيارة لمسقط رأسه كان سائرا في طريقه الى بازل، فلما رأى جيوش شارل الخامس تسد عليه الطريق اضطر أن يتخذ طريقا دائريا يمر بجنيف.

في هذه الزيارة اعترف فارل بان يد الله تعمل. فمع أن جنيف قبلت العقيدة المصلحة الا انه كان باقيا عمل عظيم ينبغي انجازه فيها. فالناس لا يهتدون الى الله كجماعات بل كأفراد. وعملية التجديد ينبغي أن تتم في القلب والضمير بقوة الروح القدس لا بقرارات المجالس. وفيما طرح شعب جنيف عنهم سلطة روما لم يكونوا مستعدين تمام لان ينبذوا الرذائل التي تفشت تحت حكمها. ولم تكن مهمةً سهلةً تثبيتُ مبادئ الانجيل الطاهرة في هذه المدينة واعداد شعبها ليملأ عن جدارة المركز الذي بدا ان العناية الالهية تدعوه اليه.

كان فارل واثقا بانه قد وجد في كلفن الشخص الذي يمكنه أن يشركه معه في هذا العمل. وقد ناشد ذلك الواعظَ الشاب باسم الله أن يبقى ليخدم معه. لكنّ كلفن تراجع فزعا. فاذ كان بطبعه خجولا ومحبا للسلام فقد أجفل من الاحتكاك بأهل جنيف الذين كانت روحهم جريئة ومعتزة بنفسها وعنيفة. ثم ان اعتلال صحته وولعه بالدرس والاطلاع جعلاه يميل الى العزلة وينشدها. واذ كان يعتقد انه بكتاباته يمكنه أن يسدي أجلّ الخدمات لقضية الاصلاح كان يرغب في أن يجد لنفسه معتكفا هادئا فيه ينكّب على الدرس، وهكذا فعن طريق المطبوعات يستطيع أن يعلم الكنائس ويبنيها. لكنّ انذار فارل المهيب المقدس جاءه كأنه صوت من السماء فلم يجرؤ

على الرفض. وقد قال « انه تراءى له وكأن يد الله قد امتدت اليه من السماء لتمسك به، وثبتته على نحو قاطع في المكان الذي كان يرغب كل الرغبة في تركه » (٢١٢).

أعداء ألداء للاصلاح

في هذا الوقت كانت مخاطر عظيمة محدقة بالقضية البروتستانتية. لقد ارعدت حروم البابا ضد جنيف فكانت هنالك أمم قوية تتوعدها بالهلاك. فأنَّى لهذه المدينة الصغيرة أن تقاوم السلطة الدينية القوية الجبارة التي طالما ارغمت الملوك والاباطرة على الخضوع لها ؟ وكيف يمكنها أن تصمد أمام الجيوش القوية التي يقودها غزاة العالم الاشداء الصناديد؟

في كل العالم المسيحي كانت البروتستانتية مهددة باعداء أقوياء مرعبين. فاذ احرز الاصلاح أول انتصاراته عبأت روما قوات جديدة على أمل أن تقضي عليه بالدمار. وفي هذا الوقت أنشئت رهبنة اليسوعيين (الجزويت) وهي أقسى أبطال البابوية الفاسدين وأقواهم. فاذ انقطعوا عن كل الصلات الأرضية وبُتروا من كل المصالح البشرية واميتوا عن مطالب العاطفة الطبيعية وابكموا العقل والضمير، فانهم لم يكونوا يعرفون قانونا ولا صلة عدا قوانين رهبانيتهم وصِلاتها، ولم يكونوا يعرفون واجبا غير واجب نشر سلطانها (انظر التذييل). لكنّ انجيل المسيح كان قد اعان معتنقيه على مواجهة الاخطار واحتمال الآلام وعدم استهابة البرد أو الجوع أو التعب أو الفقر، وعلى رفع راية الحق في وجه آلات التعذيب أو السجون أو النار المحرقة. فلكي ينازل الجزويت هذه القوات أضرموا قلوب تابعيهم بنار التعصب الذي أعانهم على احتمال مثل تلك المخاطر واستخدام كل قوى الخداع لمقاومة قوة الحق. فلم يتورعوا عن ارتكاب أفظع الجرائم أو استخدام أحط أساليب الخداع أو الغش المتعددة الاشكال. ومع كونهم قد نذروا ان يعيشوا عيشة الفقر والاتضاع مدى الحياة فقد كان هدفهم المدروس

أن يحرزوا الثروة والسلطان وأن يكرسوا جهودهم لتدمير البروتستانتية ويوطدوا دعائم السيادة البابوية.

تزيّا هؤلاء الرهبان بقناع القداسة فبدأوا بزيارة السجون والمستشفيات، وكانوا يخدمون المرضى والفقراء، ويقررون أنهم قد نبذوا العالم وهم يحملون اسم يسوع المقدس الذي جال يصنع خيراً. ولكن تحت هذا المظهر الخارجي الذي لا غبار عليه كانت تختفي أرهب النوايا الاجرامية المميتة. وقد كان من المبادئ الاساسية لهذه الرهبنة « ان الغاية تبرر الوسيلة ». وبناء على هذا المبدأ كان الكذب والسرقة و يمين الزور وجرائم الاغتيال، فضلا عن كونها مغتفرة، تُعتبر اعمالا حميدة وجليلة ما دامت تخدم مصالح الكنيسة. وتحت كثير من أشكال التنكر زحف الجزويت الى وظائف الدولة وجعلوا يتسلقون حتى صار بعضهم مستشارين للملوك، وصاروا يشكلون سياسة الدول. وكان بعضهم يعملون كخدم ليتجسسوا على سادتهم. وقد اقاموا كليات لابناء الامراء والنبلاء ومدارس لعامة الشعب، وكان أبناء البروتستانت يُجبرون على حفظ الطقوس البابوية. هذا، وقد استخدمت كل مظاهر الابهة والفخامة الخارجية لتربك عقول الاولاد وتذهل وتأسر أفكارهم، وهكذا خان الابناء عهود آبائهم وأسلموا الحرية التي في سبيلها تعب آباؤهم واستنزفوا دماءهم. وبسرعة عظيمة توسّع الجزويت في كل أوروبا وأينما حلوا انتعشت البابوية.

وفي سبيل زيادة سطوتهم وسلطانهم صدرت براءة بابوية بإعادة محاكم التفتيش (انظر التذييل). وعلى الرغم من نفور الشعب الكاثوليكي نفسه وكراهيتهم لهذه المحكمة المخيفة فقد أقامها الحكام البابويون ثانية، وارتكبت في أعماق السجون السرية فظائع أرهب من أن تواجه النور. وفي ممالك كثيرة قُتل الوف فوق الوف أو أجبروا على الهرب الى بلدان اخرى، وهم من زهرة الامة الذين كانوا أطهر وأشرف الناس وأعلاهم ثقافة وأسماهم علما وخلقا وأتقاهم، من الرعاة المكرسين والمواطنين الكادحين المحبين للوطن والاساتذة العباقرة

والفنانين الموهوبين والصناع المهرة.

انتصارات للاصلاح

هذه هي الوسائل التي استخدمتها روما لاطفاء نور الاصلاح وحرمان الناس من الكتاب المقدس وابقاء جهالة العصور المظلمة وخرافاتها جاثمة على الصدور. ولكن ببركة اللّه وجهود أولئك الرجال الاشراف الذين أقامهم اللّه ليخلفوا لوثر لم تُقهر البروتستانتية ولم تُعزى قوتها الى فضل اسلحة الامراء. لقد صارت اصغر البلدان واحقر الامم واصغرها وأقلها قوة معاقل لها. كانت جنيف الصغيرة واحدة من تلك المدن التي كانت في وسط أعداء أشداء يتآمرون على هلاكها. وكذلك البلاد الوطيئة (هولندا) بشواطئها الرملية في بحر الشمال صارعت ضد طغيان اسبانيا التي كانت حينئذ اعظم الممالك وأكثرها ثراء. وأيضا السويد الشديدة البرودة والمجدبة التربة أحرزت للاصلاح نصرة عظيمة.

ظل كلفن يعمل جاهدا في جنيف حوالي ثلاثين سنة، ليقيم أولا هناك كنيسة تتمسك بفضائل الكتاب المقدس، ولينشر ثانيا الاصلاح في جميع انحاء أوروبا. ولم يكن تصرفه كقائد شعبي خاليا من الاخطاء، ولا كانت تعاليمه خالية من الخطأ، لكنّه أعان على نشر الحقائق التي كانت مهمة في عصره وعلى حفظ المبادئ البروتستانتية للصمود أمام تيار البابوية الذي كان يعود مسرعاً، ومنها بساطة الحياة المسيحية وطهارتها التي عمل على تنميتها في الكنائس المصلحة لتحل مكان الكبرياء والفساد الذي تفشى بتأثير التعاليم البابوية.

ومن جنيف خرجت مطبوعات وبرز معلمون لنشر التعاليم المصلحة. وقد نظر المضطهَدون في كل البلدان الى هذه الوسائل في انتظار التعليم والمشورة والتشجيع. وصارت مدينة كلفن هذه ملاذا لكل المصلِحين المطارَدين في كل غربي أوروبا. فأولئك المهاجرون في هربهم من الاعاصير المخيفة التي ظلت تهب عدة قرون قرعوا أبواب جنيف. واذ كانوا يتضورون جوعاً ومجروحين ومحرومين من الوطن والأهل رحب بهم أهل المدينة وعوملوا بكل رفق ومحبة.

ولما وجدوا في هذه المدينة وطنا باركوها بحذقهم وعلومهم وتقواهم. وكثيرون ممن لجأوا اليها يحتمون فيها عادوا الى بلدانهم ليقاوموا طغيان روما. ان جون كنوكس المصلح الاسكوتلاندي الشجاع، وجماعة غير قليلة من البيوريتان الانجليز، والبروتستانت في هولندا واسبانيا، والهيجونوت في فرنسا حملوا من جنيف مشعل الحق لينيروا ظلمات أوطانهم .